التشاكل الصوتي في القرآن الكريم

أ. سهام صياد

جامعة الإخوة منتوري –قسنطينة1

الملخص:

يبدأ تشكل التشاكل الصوتي في القرآن الكريم بداية من دقة اختيار الصوامت بما تحمله من خصائص وصفات، وما فيها من جرس وظلال، ومراعاة توزيعها وتأليفها في التركيب، بما يتشاكل والمعاني والأغراض التي تدور حولها الآيات القرآنية ، فالأصوات تتجاوب، و تتلون تبعا للسياق؛ فتهمس وترق في سياق الهمس؛ ويكون ذلك خاصة مع مشاهد النعيم والجنة. وتشتد وتحتد في سياق الشدة و الغضب مع مشاهد العذاب. وبذلك فهي بما تحمله من قيمة تعبيرية أدلة على المعاني، ثم يظهر التشاكل الصوتي أيضا في العلاقة الوثقى بين الصوت والدلالة لتتجلى أكثر في تأليف الأصوات في اللفظة الواحدة؛ حيث تتمتع الأصوات بطاقة تصويرية إلى جانب ما فيها من طاقة تعبيرية في محاكاة المعاني تجسيدا أو تشخيصا، بل إن التشاكل ليتبدى أكثر في ترتيب أصوات الكلمة بما يشاكل الحدث المعبر عنه، وبما يعطي المعنى هيئته وصورته. وكل ذلك يصنع المعجزة الصوتية القرآنية الخالدة فسبحان الله العزيز الحكيم.

Abstract:

The vocal isotopy in the holy Qur'an

The vocal isotopy in the holy Qur'an starts by the accurate refining of the silent letters with its specificities and characteristics including the phoneme ; regarding its use and place in the syntax with what fits the meanings and purposes of the Qur'an verses, as the tone responds and differs according to the context. It is low and thin especially when describing bliss and paradise and is stressed and sharped in the description of anger and distress, so it is defined by what it owns as an expressive value that reflects the meanings.

The vocal isotopy manifests more in the strong relationship between the phoneme and meaning where it

appears more in the composition of phonemes in one word, as it is characterised by an energetic description of meanings and more reflected in the order of the word's phonemes according to the described event and what serves as image to the meaning.

All that make the eternal Quranic voical miracle.

Glory be to Allah, the exalted in might, the wise.

جاء في لسان العرب أن المشاكلة: «من الشكل؛ والشكل: الشبه والمثل... تقول: هذا على شكل هذا أي على مثاله، وفلان شكل فلان أي مثله في حالاته... والمشاكلة الموافقة، والتشاكل مثله، والشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، وشاكلة الإنسان شكله وناحيته وطريقه... والشكل بالكسر: الدّل، وبالفتح: المثل والمذهب، وهذا طريق ذو شواكل أي تتشعب منه طرق جماعة، وشكل الشيء صورته المحسوسة والمتوهمة....»[1].

وعند ابن فارس (ت 392 هـ) أن: «الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شكل هذا، أي مثله، ومن ذلك يقال: أمر مشكل، كما يقال أمر مشتبه، هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا ،ثم يحمل على ذلك، فيقال: شكلت الدابة بشكاله، وذلك أنه يجمع بين إحدى قوائمه، وشكل لها، وكذلك دابة بها شكال، إذا كان إحدى يديه وإحدى رجليه محجلا، وهو ذاك القياس، لأن البياض أخذ واحدة وشكلها»[2].فالتشاكل هو التماثل والمشابهة والمقاربة والتناسب وغير ذلك مما يحيل على نوع من المناسبة والصلة بين شيئين أو أشياء . وهذا ما سنقتفي أثره في كلام العزيز الحكيم من خلال استنطاق المعجزة الصوتية للقرآن الكريم .

---

[1] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 2004 م، ج 7–8، ص 119، مادة (شكل).

[2] – ابن فارس، أبو الحسن أحمد: مقاييس اللغة، وضح حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، (1420 ه–1999 م)، ج 1، ص 621، مادة (شكل).

يعرف التشاكل الصوتي بأنّه إركام لعناصر صوتية تشيد انسجام النص، واتّساقه، وهذه العناصر أو التناسقات الصوتية تبدأ من أصغر إلى أقصى وحدة صوتية تـــدخل في التشكيل اللّغوي للنص. ونعني بها –العناصر–التشاكل الذّي تحقّقه الحروف (صـــوامت وصوائت)، والتشاكل اللّفظي (الجناس، الترديد، الترصيع ، المشاكلة... إلخ) ثمّ التشاكل الجملي (التوازي)... وهذا ما يجعل النص يسبح في إيقاعية داخلية، يتمظهر من خلالهـــا وبوساطتها المعنى المراد. فتوارد حروف بعينها وهيمنة أصوات على أخـــرى، واختيـــار ألفاظ دون غيرها، وتكرارها وتنضيدها في تركيب خاص وضمن سياق ما. وكـــذلك توظيف جمل بعينها والإلحاح عليها. كلّ ذلك لا يمكن أن يكون محض صدفة، أو كيفما اتّفق، وإنّما هي دلالة وهي مقصدية، يتحرّك في إطارها صاحب الـــنص ويطمـــح في إيصالها إلى المتلقي.

فالتشاكل الصوتي موكل بالكشف عمّا يحقّقه المظهر الصوتي الذي يقوم أساســـا على التكرار الذي يعتبر مرتكز التشاكل والتراكم الكمي للأنماط التعبيرية مـــن شـــعرية وجمالية، باعتبار «التكرار الوسيلة الوحيدة التي لا خلاف حولها لاكتشاف واقعة لغوية وتحديدها»[1].

ولأنّ ثمّة ما يبرّر للتكرار وجوده،[2] وهو تقرير المعنى وإثباته، وصرف العناية إليه[3]. فقد وقفنا عند أشكال التكرار التي تتمظهر من خلالها ظاهرة التشاكل الصوتي في القرآن الكريم مركزين على الصوامت فقط.

---

[1] – موليينيه، جورج: الأسلوبية، ترجمة: بسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، (1420ه–1999م)، ص 183.

[2] – ينظر: عياشي، منذر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 2002 م، ص 79.

[3] – ينظر: ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط 1، (1419ه–1998م)، مج 2، ص 143.

1/أهمية المقوّم الصوتي في القرآن الكريم:

نبّه القرآن الكريم إلى خطورة المكوّن الصوتي في استمالة القلوب، من ذلك ما تحكيه الآيات القرآنية عن ردّة فعل كفّار قريش إزاء هذه المعجزة الصوتية، فكانوا يتواصون بعدم الاستماع إلى محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، يقول تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ** ﴾ [فصّلت/26]، أي تشاغلوا عنه بالمكاء والتصدية والتصفير حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه[1].

وقوله تعالى: ﴿ **أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ﴾ [هود/05]. «قيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه، ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي»[2].

بالإضافة إلى أمر الله عزّ وجلّ للمؤمنين بالاستماع للقرآن في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ** ﴾ [الأعراف/204].

وأمر الله عزّ وجلّ للرسول -صلّى الله عليه وسلّم-بترتيله في قوله تعالى: ﴿ **وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا** ﴾ [المزمّل / 04] أي « لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان

---

[1] - ينظر: الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، علق عليه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط 2، (1426ه – 2005 م)، ج 24، ص 968.

[2] - البغوي، أبو محمد حسين بن مسعود: تفسير البغوي "معالم التنزيل"، حقّقه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة خيمرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، د ط، 1411ه، مج 4، ج 12، ص 161.

مع تدبر المعاني»[1]. ويقول الزمخشري (ت 538هـ): «وترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيها بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان وألّا يهذّه هذا ولا يسرده سردا»[2].

فهذه الآيات وغيرها تدعم أهميّة المقوّم الصوتي في القرآن الكريم، وتؤكد تأثيره في النفوس، وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتعلي من شأن الجانب الصوتي، منها قول الرسول –صلّى الله عليه وسلّم–، عن أبي هريرة –رضي الله عنه–أنه كان يقول: «قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن، وقال صاحب له: يريد يجهر به»[3]، وقد اختلفوا في معنى (يتغنى) «على أربعة أقوال: أحدها تحسين الصوت، والثاني الاستغناء، والثالث التحزن قاله الشافعي، والرابع التشاغل به»[4]. قال البيهقي: «إنما أراد –والله أعلم–الاستماع له، وقول النبي –صلى الله عليه وسلم–يتغنى يريد به تحسين الصوت به غير أنه يميل به نحو التحزين وليس التطريب»[5].

---

[1] – القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، ، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1، (1427 هـ–2006 م)،ج 21، ص 323.

[2] – الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف، ج 29، ص 1150.

[3] – العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة السلفية، د ط، دت، كتاب فضائل القرآن، الحديث رقم (5033)، ج 9، ص 68. وأيضا: البيهقي، أحمد بن الحسين: شعب الإيمان باب تعظيم القرآن، فصل في تحسين الصوت بالقراءة والقرآن، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، (1421 ه–2000م)، الحديث (2142)، ج 2، ص 387.

[4] – المصدر نفسه، كتاب فضائل القرآن، الحديث رقم (5033)، ج 9، ص 70.

(5) البيهقي: شعب الإيمان باب تعظيم القرآن، فصل في تحسين الصوت بالقراءة والقرآن، ج 2، ص 387.

وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «زيّنوا القرآن بأصواتكم»[1]. والمقصود هو حسن الإلقاء الذي يكون بالتزام حسن الآداء والنطق الصحيح ومراعاة قواعد التلاوة من مد،و غن، وإظهار، وإخفاء، ووصل، ووقف[2].

وعن عبد الرحمن بن السائب قال: قدم علينا سعد بن أبي وقاص وقد كفّ بصره فأتيته مسلما عليه فقال: من أنت؟ فأخبرته فقال يا ابن أخي بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-يقول: «إنّ هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منّا»[3].

وعن فضالة بن عبيد الأنصاري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لَلّه أشدّ إذْنًا للرجل حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة قينته»[4]، فالأمر بتحسين الصوت بالقرآن وتحبيره، يؤكّد أهميّة الأداء الصوتي في عملية التأثير والاستمالة. ذلك «أنّ قارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد، ويملّ مع الترديد...»[5].

والحديث عن المقوّم الصوتي هو حديث عن الموسيقى والإيقاع والجرس والنغم، وغير ذلك من المصطلحات التي هي مادة التشكيل الصوتي. واللافت أننا لا نجد أثرا لهذه المصطلحات في كلام القدامى الذين تورعوا عن استخدامها «لأنّهم كانوا يشعرون

---

[1] - المصدر نفسه، الحديث رقم (2140)، ج 2، ص 386.

[2] - ينظر: محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، الشركة الإسلامية للإنتاج والتوزيع الرسالة-مصر، ط 1، (1409ه-1988م)، ص 11.

[3] - البيهقي: شعب الإيمان باب تعظيم القرآن، فصل في تحسين الصوت بالقراءة والقرآن الحديث رقم (2147)، ج 2، ص 388.

[4] - المصدر نفسه، الحديث رقم (2144)، ج 2، ص 387.

[5] - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: عبد الرحمن فهمي الزواوي، دار الغد الجديد، القاهرة-مصر، ط 1، (1427 هـ -2006 م)، ج 4، ص 14.

بالحرج من نعت أيّ شيء من كتاب الله بأنّه ذو جرس وإيقاع أو موسيقى، أو بأنّه مشتمل على صفة من صفات الشعر والغناء وفضّلوا أن يستعملوا مصطلحات أخرى كالفصاحة والجزالة أو الفخامة والعذوبة والسلاسة وصفاء الديباجة وحسن الرصف. وآثروها على أيّ كلمة تشتم منها رائحة الترنّم والنغم»[1]، في الوقت الذّي لم يجد فيه الدّارسون المحدثون بأسا من استخدام مصطلحات الغناء والموسيقى فيما يرونه من حسن تأليف حروف القرآن واتّساق ألفاظه، كما في قول الرافعي «... وكأنّ السامع له: إنّما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللّغوية في انسجامه، واطّراد نسقه واتّزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة كأنّها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة»[2].

ويذهب أيضا عبد العظيم الزرقاني إلى أنّ الظاهرة الصوتية الموجودة في القرآن الكريم هي أوّل ما لفت انتباه العرب يقول: «هذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أوّل شيء أحسته الآذان العربية أيّام نزول القرآن، و لم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء ما كان مرسلا، أو مسجوعا، حتّى خيّل إلى هؤلاء العرب أنّ القرآن شعر؟ لأنّهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذّة، وأخذتهم من لذّة هذا الإيقاع والترجيع هزّة، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلاّ في الشعر»[3]، ومكمن هذا الجمال الصوتي الذي استمال إليه القلوب هو: «أنّك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذّة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات، فهذا ينقر وذاك يصفّر، وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك ممّا هو مقرّر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد. ومن

---

[1] – أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د ط، 1992 م، 242.

[2] – الرّافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، د ط، (1423 هـ –2003م)، ص 147.

[3] – الزرقاني، عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت–لبنان، ط 2، (1429 هـ –2001 م)، ج 2، ص 191.

هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللّين والشدّة والخشونة والرّقة، والجهر والخفية على وجه دقيق محكم... ولقد وصل هذا الجمال اللّغوي إلى قمّة الإعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتلّ مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه»[1].

ومن الذين ولعوا برصد ظاهرة التناسق الصوتي في القرآن الكريم، وإبراز أثره في صناعة جمالية الظاهرة القرآنية، نجد سيّد قطب، وذلك عبر آلية التصوير الفنّي التي تلتقط المسموع وترسم المتخيّل وتقرّب البعيد وتستحضر الغائب عن طريق اللّون والحركة والنغمة... فمن ألوان التناسق عنده: «ذلك الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخيّر الألفاظ، ونظمها في نسق خاص...»[2]، وهو يتنوّع بتنوّع الأجواء التي تطلق فيها تلك الألفاظ[3].

هذا إلى جانب أسماء كثيرة، كعائشة عبد الرحمن، وعبد الكريم الخطيب، ومحمّد الطيّب المجذوب، وإبراهيم أنيس، ومحمّد علي الصغير... وسنحاول نحن بدورنا أن نقتفي أثر التشاكل الصوتي في القرآن الكريم مركّزين على تشاكل الصوامت الذي ينتجه التكرار والمعاودة لصوامت بعينها يكون لتشكيلها الصوتي توزيعا على جسد الآية أو الآيات أو تأليفا في اللفظة الواحدة، دوره الفاعل في إنتاج المعنى المراد.

2-تشاكل الصوامت في التركيب:

يؤكّد الدرس اللّغوي حقيقة أنّ الأصوات المفردة ليس لها دلالة جوهرية في ذاتها وإنّما التجاور والتراكم والسياق هو الذّي يمنحها معنى يكون متغيّرا ومتحرّكا بحسب الاستخدام والتصرّف، إذ قد يعبّر بالأصوات ذاتها عن أجواء الحزن والفرح، فمثلا: تكرار "النون" و"الثاء" و"الراء" في بيت يوسف غصبوب:

نَثرَ الخَريفُ عَلى الثَّرَى أوْراقَهُ * فَتَناثَرَت ْكَتَنَاثُرِ العَبَراتِ**

---

[1] - المرجع السابق، ج 2، ص 194.

[2] - قطب، سيّد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط 19، (1988-2007 م)، ص 87.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص 110.

يضفي جوّا من الحزن الهادئ الناعم... بينما تكرار هذه الأصـــوات عينـــها في قصيدة أوراق الخريف لميخائيل نعيمة:

تَنَاثَرِي تَنَاثَرِي *** يَا بَهْجَةَ النَّظَرِ

يوحي لنا بجوّ من الخفّة والرشاقة والانفلات والفرح[1].

وممّا نجده من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية/23]، فالآية تقدّم «نموذجا عجيبا للنفس البشرية، حـــين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلّب، وحين تتعبّد هواها وتحركاتها، وتقيمه إلاهـــا قاهرا مستوليا عليها»[2]، هو نموذج إذن للانتكاس و الارتكاس بعد العلم والبصر، ترسمه الهاء التي وردت في (12 موقعا) واللاّم في (11 موقعا) والواو والعـــين في (7 مواقـــع). وجميعها تشترك في صفة الاستفال *، والانخفاض لتحاكي بذلك انحدار هذا اللاّهي الذي أتبع نفسه هواها، وتقلّبه في هاوية الضلال والضياع، ولأنّ حرف الهاء هو ألين الحروف وأهشّها لأنّها «نفس لا اعتياص فيها»[3]، و«لأنّها للاضطرابات»[1]، فقد هيمنت لتـــبرز

---

[1] – ينظر: ميشال شريم، جوزيف: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت–لبنان، ط 2، 1987 م، ص ص 110، 111.

[2] – قطب، سيّد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت – لبنان، ط 15، (1408هـــ–1988م)، مج 5، ج 25، ص 3230.

* – الاستفال: هو وضع اللسان أسفل في قاع الفم عند النطق بالحرف، وحروفه كل الحروف عدا حروف الاستعلاء. ينظر: داود، محمد محمد: العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب –القاهرة، د ط، 2001 م، ص 126.

[3] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط 1، (1424هـــ–2003م)، ج 1، ص 39.

هشاشة هذا الكافر، وتشعرنا ونحن نردّدها بهويه نحو القاع. والعجيب أنّ اجتماع هذه الصوامت (اللاّم والهاء والواو) يسمح لنا باستنباط الكلمة المحور. و«هي ما يبنى عليها النص، سواء أكانت مذكورة أم مضمرة»[2]، والكلمة المحور التي انبنت عليها الآية هي (الهاوية) وكذلك (اللّهو) وبين الكلمتين ارتباط وثيق كارتباط النتيجة بالسبب لأنّ اللهو يقود إلى الهاوية.

كما أنّ صوامت الآية تمنحنا معنى ثان، يصنعه اقتران واقتراب حرفي (العين واللاّم) كما هو بيّن في الآية:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ
ع ل ع ل ع ل ع ل
مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ **أي أنّ هذا اللاّهي واقع تحت أغشية من الضلال والغفلة يستحيل إزاحتها عنه.**
ع ل

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر / 07]، تهيمن في هذه الآيات حروف اللّين والاستفال بما فيها من خفض وهي (ح، م، ل، ن، ر، ش، س، و، ب) وذلك لتشاكل مشهد وقوف حملة العرش بين يدي الله عزّ وجلّ. وهو مشهد يحفّه الجلال والرّهبة من كلّ مكان، ويغشاه الخشوع والخضوع، حيث ترتفع أصوات حملة

---

[1] – عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها –دراسة–، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، د ط، 1998 م، ص 192.

[2] – مفتاح، محمّد: دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط 3، 2006 م، ص 94.

العرش ومن حوله بالتسبيح والتحميد والتهليل تنزيها وتعظيما لخالق السموات والأرض، ولا أنسب لهذا الموقف إلاّ حروف مثل (النون، الميم، واللام، والبـــاء، الـــرّاء، الغـــين، والعين..وهي كلها تشترك في صفة الجهر*.

ثمّ ترقّ وتهمس أصوات حملة العرش بالدعاء والضراعة سائلة الرحمة والمغفرة لمن في الأرض من المؤمنين، حيث يسود جوّ من المناجاة والضراعة لمن وسعت رحمته وعلمه كلّ شيء، ولأنّ دعاء الخالق مطلقا يقتضي أن يكون المخلوق بين يديه كالخِلّس البالي، فما بالك بالملائكة المكرمين، بل وبخاصة الملائكة وهم حملة العرش، أعرف الخلق بـــالله سبحانه وتعالى، وأوجلهم منه، فلا عجب إذن من أن يلين الخطـــاب ويـــرق وتكـــون مناجاتهم بهذه الرّقة التي لا يسعنا ونحن نردّدها إلاّ أن نهمس بها، ونستشعر حنوّ الملائكة، وحبّهم الفياض وهذا ما يوحي به تكرار "الحاء والسين والشين والفاء..." وهي حروف مهموسة**. ثمّ نجد الإلحاح في الطلب، رجاء الاستجابة في تكرار حرف الرّاء، وكذلك في المدّ المتكرّر بالواو والياء. ومن ثمّة نلاحظ أنّ أصوات هذه الآية قد تآخى فيها الجهر بالهمس، وامتزجت فيها الشدّة والرخاوة مشاكلة بذلك مقام التسبيح وما يتوافق وعـــزّ الألوهية، ومقام الدعاء وما يقتضيه حنو الربوبية، وهذا من الإعجاز الصـــوتي للـــنظم القرآني الذي: «يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض، ونوع

* – الأصوات المجهورة هي «تلك التي تهتز معها الأوتار الصوتية وتتذبذب». عبد التواب، رمضان: المدخل إلى علم اللغة العربية ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، (1417ه – 1997م)، ص 36.

** – الأصوات المهموسة هي تلك «التي لا تهتز معها الأوتار الصوتية». عبد التواب، رمضان: المدخل إلى علم اللغة العربية ومناهج البحث اللغوي، ص 36.

التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المخاطبين...»[1]، ولذلك لا عجب من أن تغيب حروف الاستعلاء[***]، ما عدا حرفي (غ، ق) في «يستغفرون، وقهم».

وتكشف المعاينة الصوتية لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ، قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ، يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف / 29-32] انقياد الأصوات للمعاني وتأثرّها بها، فالجوّ الذي تقدمه هذه الآيات هو جوّ الاستعلاء والفخامة، والذي يتشاكل وحدث إسلام الجنّ وتصديقهم نبوّة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-تحقيقا لشمولية الإسلام وعالميته. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء/ 107] ففي الوقت الذي توصد الطائف أبوابها في وجهه -صلّى الله عليه وسلّم-، وتتعنّت ثقيف أكثر فتغري به صبيانها ومجانينها يستهزؤون به ويرمونه بالحجارة، وفي ذروة هذا الضيق والألم النفسي والجسدي تنفتح أمام الرسول -صلى الله عليه وسلم-عوالم غيبية، ما ورائية، هي عوالم الجنّ بما فيها من غموض وسحر بالقبول

[1] - أبو زيد، أحمد: التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ص307.

[***] - الاستعلاء: وهو أن يرتفع اللسان بجزئه الخلفي نحو اللهاة ليخرج الصوت غليظا مفخما وحروفه: (خص، ضغط، قظ). ينظر: داود، محمد محمّد: العربية وعلم اللغة الحديث، ص 126.

والاستجابة، فيتنزل عليه التأييد والنصرة من ربّه عزّ وجلّ بإعلان نفر من الجنّ إيمانهم به، وتبليغهم عنه إلى بني جنسهم.

هو حدث إذن ضارب في القوّة والصلابة التي تحتث معها أيّة شائبة من ضعف أو فتور همّة. ولذلك كان لزاما أن تتآخى الأصوات بالمعاني، وتتشاكل لتصوير قوة هذا الحدث. ولأنّه متى قويت المعاني قويت الأصوات، كان لتردّد أصوات الاستعلاء والتفخيم، وهي: الصاد في (3) مواضع، والقاف في (11) موضعا والضاد في (4) مواضع، كل ذلك كان له وقعه في إيقاع مشاعر القوّة والتمكين والثقة بنصر الله، التي يشيعها في النفس بداية ضمير العظمة في "صرفنا" بما فيه من عزّ الألوهية وجلال وعظمة الربوبية. ثمّ نلاحظ أنّ تردّد الضاد خاصة بما فيه من استطالة يوحي بتمدّد الإسلام وارتفاعه وفي ذلك استشراف لما سيؤول إليه أمر الإسلام من الانتشار، ومن المنعة والقوّة، في الوقت الذي تضيق مكّة وشعابها ذرعا بالإسلام والمسلمين.

ولأنّ أصوات الحروف كما يقول الرّافعي: «إنّما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتّفقت فلابدّ لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلاّ من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده»[1]، كان التلاؤم إذن في الجمع والتأليف بين الحروف في الكلمة، وفي التركيب هو أحد أوجه الإعجاز الصوتي القرآني، وأحد أسباب علوّ كعب النظم القرآني، وتفوّقه على سائر الكلام، وجعله في الطبقة العليا في تأليف الكلام كما ذهب إلى ذلك الرماني (ت 384هـ): «... والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كلّه، وذلك بيّن لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى»[2].

---

[1] – الرافعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، ج 2، ص 171.

[2] – الرّماني، أبو الحسن علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، ص95.

ولذلك كان «التلاؤم مبدأ جماليا ضروريا لنجاح النص»[1]، الذي تتآلف عناصره وتتلاحم مشكّلة لحمة واحدة. حتى يكون أقدر ليس على الإبلاغ فقط وإنّما أيضا على التأثير بإثارة مشاعر الجمال، أي أن تكون له وظيفة تأثيرية جمالية[2].

فالتشاكل الصوتي القرآني يظهر في انتقاء أصوات الحروف، مخارج وصفات وتأليفها في الألفاظ وفي التركيب، وهذه الأصوات ما هي إلاّ استجابة للموضوع وللسياق الذي تستنبت فيه، ويتمّ تكييفها، ولذلك يحدث التلوين الصوتي الذي يتميّز به النظم القرآني، الذي لا يجري فيه الإيقاع «على نمط واحد، بل هو يتنوّع بتنوّع الموضوع فحينا يكون إيقاعه هادئا، وحينا يكون هادرا»[3]، وذلك لأنّ الإيقاع القرآني – كما قلنا–«... لا يعمل بصورة منفردة وبمعزل عن السياقات المتنوّعة في النص القرآني، وذلك لأنّ النص القرآني منظومة متكاملة الأطراف يفضي بعضها إلى بعض في سياق تنظيمي فريد، فالإيقاع القرآني يتبع في نطاق عمله الموضوع الذي تتكلّم عنه الآيات القرآنية»[4]، فيهمس ويرقّ في مواضع الهمس، ويجهر ويشتدّ في مواضع الجهر والشدّة، ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ، ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ، ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ، يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ

---

[1] – محمد تحريشي: النقد والإعجاز، ص 60.

[2] – ينظر: عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، ص 33.

[3] – ويس، أحمد محمد: ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي "بحث في المشاكلة والاختلاف"، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، د ط، 2002 م، ، ص 364.

[4] – جاب الله، أسامة عبد العزيز: جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن، ط 1، 2013 م، ص 35.

﴿ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ، وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف / 68-73]، توزيع وترتيب معجز لأصوات هذه الآيات بما يتشاكل ومعانيها، التي تصف ما هيّأه الله عزّ وجلّ لعباده المؤمنين من ألوان النعيم النفسي والمادي، ما تطيب معه وبه النّفس، وينشرح له القلب، من الأمن الذي لا يخالطه أدنى خوف، إلى ما تشتهيه الأنفس، وتلذّ الأعين، وغيرها من الكرامات، التي فصّلت فيها الآيات. وقد ساهمت أصوات حروف هذه الآيات في تقديم هذا المشهد الحالم الناعم، الذي يشيع من جنباته الحبور، والسرور. وهذه الحروف هي النون التي تكرّرت في (19 موضعا) واللاّم في (16 موضعا)، والميم في (17 موضعا)، والتاء في (15 موضعا)، بالإضافة إلى الحاء في (03 مواضع) والسين في (موضعين)، وهي كلّها تشترك في صفة الاستفال والانفتاح*، ولكنّها تفترق في صفة الجهر (ل، م، ن)، والهمس (ت، ح، هـ، ك، ف، س)، والإذلاق** (ل، م، ن) ما أضفى على الخطاب جوّا من اللّيونة والحسن والانشراح، وهكذا فإنّ «الآيات التي ترد في مقامات الترغيب والتسلية والتلطّف فإنّ الرضى والمحبّة اللّذان يغمران المقام تنعكس آثارهما على الألفاظ والعبارات فتجعلها رقيقة رخية الإيقاع»[1].

* - الانفتاح: هو وضع اللسان عند نطق بعض الأصوات، حيث ينفتح ما بين اللسان والحنك الأعلى، ويخرج الهواء من بينهما. داود، محمد محمّد: العربية وعلم اللغة الحديث، ص125.

** - الإذلاق: وهو خروج الصوت من ذلق أو أسلة اللسان وهي: (ر، ل، ن، ف، ب.م) ينظر: الفراهيدي، خليل بن أحمد: كتاب العين، ج 1، ص 37.

[1] - أبو زيد، أحمد: التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ص 308.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ، يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ، كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ، فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان / 51-57]، هو ذاته مشهد النعيم الذي رسمته سورة الزخرف، حيث ترسم أصوات الحروف وجرسها جوّا من الخفّة والرشاقة الذي يضفيه تراكم خاصة حرف السين والنون والفاء، بما فيها من همس ورخاوة وغير ذلك من صفاتها التي تحفّز الخيال للقبض على صورة الجنات، وما تطويه هذه اللّفظة من ألوان وظلال تزيدها صورة الثياب وقد لان ونعم خفيفها وغليظها، وحور العين والفاكهة جمالا أخاذًا، كلّ ذلك فضل من الله ومنّة.

ومن ثمّة ندرك أنّ للمكوّن الصوتي في النظم القرآني أثره البالغ الدّقة في أداء المعنى أو تقريبه، حيث يعمل التشاكل بين الإيقاع الصوتي والمعاني على رسم صورة المعاني في الخيال وإثارة الإحساس بها في نفوس المخاطبين[1]، وحتى وإن وردت أصوات القوّة والشدّة كالضاد والظاء والقاف، إلاّ أنّها تتماهى خصائصها في خصائص أصوات اللّين، ويخفت وقعها بسبب هيمنة هذه الأخيرة.

وصورة أخرى من صور التشاكل الصوتي، الذي تلعب فيه أصوات الحروف وخصائصها دورا بارزا في الدلالة على المعنى، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

[1] – ينظر: المرجع السابق، ص 307.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ، وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصّلت / 30-35]، فقد جاءت الحروف أدلة على المعاني والأحداث المعبّر عنها بتعبير ابن جنّي[1]، فقد هيمنت حروف الاستفال والإذلاق وهي الميم التي تكرّرت (22 مـــرّة)، والنون (27 مرّة)، واللاّم (33 مرة) بالإضافة إلى الهمس الذي توشوش به كلّ من الحاء (10 مواضع) والفاء في (09 مواضع) والسين والكاف في (08 مواضع) وغيرها، فجميع هذه الأصوات تضافرت لإشاعة حالة الطمأنينة والرحمات التي تغشى المـــؤمنين بـــترول الملائكة عليهم، حاملة لهم بشرى الجنّة الموعودة تثبيتا وتأنيسا لهم. ويـــزداد الخطـــاب انسيابية بتتابع السينات في الألفاظ التالية (أحسن، مسلمين، الحسنة...) وما فيها مـــن جرس وظلّ يجعل المسلم يترقّى في مدارج الإحسان بمقابلة السيّئة الحسنة. ولأنّ الأمـــر عسير على النفس ويتطلّب مزيد قوة، توالت حروف القوّة، وهـــي (الصـــاد، الظـــاء والقاف) بما فيها من جهر واستعلاء مشاكلة لصعوبة حمل النفس علـــى الصـــبر علـــى الإساءة ، بل وأشدّ من ذلك الإحسان إلى من أساء، وهكذا نلاحظ كيـــف تتســـاند الأصوات وتتعاضد فيما بينها لأداء الدلالة المقصودة التي تتوافق والسياق، وكما يقـــول الرّافعي: «إذا اشتدّت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة»[2].

---

[1] – ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: علي النجار، المكتبة العلمية، ج 2، ص 155.

[2] – مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 23.

أما في سياق الشدّة والقوّة، فنجد قولـــه تعـــالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ، إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ، فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ، وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ، وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [فصّلت / 13-18]، تهدر هذه الآيات بأصوات مجلجلة يسابق معناها جرسها في السمع فتتبعثر بها النفس رعبا وفزعا، وهي الهمزة في (24 موضعا) بما فيها من جهر وشـــدّة وإصـــمات* وإطبـــاق، والقاف التي تكرّرت في (11 موضعا) والدّال في (10 مواضع) والباء في (16 موضـــعا)، وما فيها من الجهر والشدّة والقلقلة** واستعلاء، كلّ ذلك يخبر بكمّ الغضـــب الهـــادر والسخط الذي تختزنه ألفاظ هذه المحاورة التي تجاذب طرفاها الإنذار بالعذاب الشـــديد، والهلاك الوبيل الذي تحدثه الصاعقة والرّيح الصرصر، والـــذّي –الهـــلاك–كـــان وراء استئصال عاد وثمود. والتحدّي المتلفّع بالصلف والغرور. ولاشكّ أنّ اســـتجابة هـــذه الأصوات المجتمعة مع المعنى المراد؛ وهو التخويف والوعيد يحقّق غايته في استثارة مشاعر

* - الإصمات: هو المنع وفي الاصطلاح ثقل نسبي في النطق بحروف العربية عدا حروف الذلاقة. ينظر: داود، محمد محمّد: العربية وعلم اللغة الحديث، ص 127.

** - القلقلة: هي إضافة صوت لين قصير يشبه الكسرة إلى الصوت، وحروفها (قطب، جد). إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مطبعة النهضة، مصر، د ط، د ت، ص47.

الخوف والإشفاق من المصير المشؤوم الذّي حاق بعاد وثمود، ما جعل "عتبة بن ربيعة" يناشد الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- بأن يصمت حينما تلا عليه هذه الآيات[1].

ولأن «المعنى دائما يعظم شأنه ويرقى إذا ما صاحبته المؤثرات الصوتية التوقيعية الخالصة»[2]، فقد جاء تكرار لفظة صاعقة ثلاث مرّات بما في أصواتها من وقع الانفجار في السمع، ليوحي أكثر بشدّة الموقف وصعوبته.

3-تشاكل الصوامت في اللفظة:

إذن وبالإضافة إلى توزيع الصوامت في التركيب والتي تعمل -كما رأينا-أصواتها مجتمعة على استيحاء معنى الآية مساندة السياق. نجد أنّ هذا الأمر متحقّق على مستوى اللّفظة الواحدة أيضا، حيث تسهم أصواتها في الدلالة على دلالتها، فتكون حكاية لمعناها: «فقد استعمل القرآن طائفة من الألفاظ، تمّ اختيار أصواتها بما يتماشى مع أصدائها، واستوحى دلالتها من جنس صياغتها فكانت دالة على ذاتها بذاتها»[3]

وقد أثارت قضيّة العلاقة بين اللّفظ ومعناه اهتمام الباحثين في مختلف فروع المعرفة والذين انقسموا حولها بين رافض ومؤيّد لوجود تلك العلاقة وحقيقتها[4]. أما المؤيدين لوجود الرمزية الصوتية فقد قسموها كما أشار صلاح فضل إلى قسمين:

---

[1] - ينظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ج 18، ص 390.

[2] - أولمان، ستيفن: دور الكلمة، تحقيق وترجمة: كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، د ط، د ت، ص 77.

[3] - الصغير، محمد علي: الصوت اللغوي، دار المؤرخ العربي، بيروت -لبنان، ط 1، (1420ه-2000م)، ص 164.

[4] - ينظر: الفاخري، صالح سليم عبد القادر: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، د ط، د ت، ص 09. محمّد، مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، ص 33. جون كوهن: النظرية الشعرية بناء لغة الشعر اللغة العليا، ترجمة: أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط 4، 2000 م، ص 265. فضل

أ–«مباشرة: وهي التي تختلط بعناصر المحاكاة الطبيعية في الأصوات وتستقى الإيحاءات منها مثل" زئير الريح وإيقاع المطر الرتيب.

ب–غير مباشرة: وهي التي تتمثل في الاشتراك المفاجئ للعنصر الصوتي في الدلالة»[1].

وعلى الرّغم من أنّ النقاد العرب القدامى قد بذلوا جهدهم في توضيح آلة البيان، ومدار الفصاحة التي تكمن في ملافظ الحروف وأصواتها، وأثر ذلك في استحسان اللّفظ أو استهجانه، إلاّ أنّ ذلك لم يهدهم إلى الكشف عمّا تختزنه الأصوات من طاقات تعبيرية كامنة، وما تلعبه من دور مدعومة بالمقوّم التركيبي والدلالي في بناء المعنى، ما عدا بعض الإشارات العميقة التي ربطت بين صورة الكلمة ودلالتها، من ذلك ما قاله ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) من أن الحروف سميت بذلك لأنها: «جهات للكلام ونواح، كحروف الشيء وجهاته»[2]، وما أشار إليه الخليل بن أحمد (ت 175هـ)[3]، وما قدّمه ابن جني (ت 392هـ) أيضا من وعي وحساسية مفرطة في تحسّس صفات الأصوات ووقعها في باب «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني»[4]– كما سنرى بعد قليل–فقد وجدنا شبه إجماع من قبل النقاد على رفض بعض الظواهر الصوتية التي ظهرت في شعر بعض الشعراء، واستبشاعها من ذلك لفظة (مستشزرات) في قول امرئ القيس:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزَرَاتٍ إلى العُلاَ * تَضِلُّ العَذَارَى في مَثْنَى ومُرْسَلِ**

صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، د ط، 2003 م، ص 313.

[1] – فضل، صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص ص 313–314.

[2] – ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله: سرّ الفصاحة، ص 23.

[3] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، ج 1، ص ص 39–40.

[4] – ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، ج 2، ص 152.

فقد ردّها ابن الأثير (ت 637هـ) وغيره من النقاد لأنّها أخلّت بشرط من شروط الفصاحة، وهو تقارب حروفها (س، ت، ش) ممّا يثقل على اللسان[1].

هذا دون الالتفات إلى ما تحمله اللّفظة من قيمة تصويرية تعبيرية قصدها الشاعر ليحاكي بها تنافر شعر الموصوفة، الذي ارتفع بعضه إلى الأعلى ليغدو التنافر –سمة جمالية–لازما لزوما فنيا مؤكدا، لأنه ينطبق على الصورة التي يريد الشاعر أن يرسمها[2].

وكذلك شأشأة الأعشى في قوله:

وَقَدْ غَدَوْتُ إلى الحَانُوتِ يَتْبَعُنِي * شَاوٍ مِشلٌ شَلُولُ شُلْشُلُ شَوِلُ**

فتراكم حرفي الشين واللاّم بهذه الكثافة، إنّما هو حكاية لترنح السكارى حينما تأخذهم نشوة السكر، فتتلعثم ألسنتهم وتتبعثر كلماتهم[3]. وأيضا قلقلة أبي الطيّب المتنبّي التي جعلت الصاحب بن عبّاد يقول: «ما له قلقل الله أحشاءه وهذه القافات الباردة»[4]:

فَقَلْقَلْتُ بَاهَمْ بِالَّذِي قَلْقَلَ الْحَشَا * قَلاقِلُ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ** [5]

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي استعصت على الفهم.

فالتوسّل بالمادة الصوتية بما تحمله من خصائص وظلال لأداء المعنى عرف درج عليه الشعراء القدامى، الذين استعملوا «... في الإبانة عن فكرهم وانفعالهم حكاية ألفاظهم بجرسها الصوتي للصوت الطبيعي، أو العمل، أو الحركة، أو الانفعال الذي ينقلونه، وقصر عن إدراكها النقاد»[6].

---

[1] – ينظر: ابن الأثير ضياء الدين نصر الله: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 1، ص 186.

[2] – ينظر: النويهي، محمد: الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج 1، ص ص 44–45.

[3] – ينظر: المرجع السابق، ج 1، ص 68.

[4] – إبراهيم، أنيس: موسيقى الشعر، مطبعة الأنجلو المصرية، ط 2، 1952 م، ص 36.

[5] – المرجع نفسه، ص 36.

[6] – النويهي، محمد: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، ص 69.

ومن الذّين تنبّهوا إلى هذه السمة الأسلوبية الجمالية في القرآن الكريم في العصر الحديث: سيّد قطب في كتابه "**التصوير الفني**"الذي كشف فيه أنّ «هناك المواضع التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها، فيساعد على إكمال الصورة الحسية أو المعنوية. وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير، والتعبير للتصوير»[1]، إذ من الألفاظ ما يكون صورة شاخصة للمعنى، من ذلك لفظة (إثّاقلتم) و(ليبطئن) (عتل) (كبكبوا)... وغيرها من الألفاظ التي تصور المعنى بجرسها[2]، بل هناك نوع من الألفاظ ما يرسم الموضوع ليس بجرسه وإنما بظله بما يقذفه في الخيال[3].

وكذلك فعل الرافعي الذي بدوره وقف عند كلمة ضيزى في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم / 21، 22]، مستوحيا من أصواتها دلالتها المعنوية، جامعة غرابتها بغرابة القسمة التي أنكرها[4].

وعود إلى ابن جني (ت 392هـ) الذي عقد في كتابه« **الخصائص**» أربعة فصول حاول فيها الكشف عن الصلة الخفية بين الألفاظ ودلالتها[5]. فتحت عنوان «**في إمساس الألفاظ أشباه المعاني**»، أشار إلى أنّ أصوات الحروف تأتي على صورة الأحداث المعبّر عنها. يقول: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر عنها»[6]. وقد مثّل لذلك بقولهم: خضم وقضم، فلأنّ الخاء أضعف من

---

[1] – قطب، سيّد: التصوير الفني، ص 90.

[2] – المرجع نفسه، ص ص 91 –94.

[3] – ينظر: المرجع نفسه، ص 95.

[4] – الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ص 158–159.

[5] – ينظر: إبراهيم، أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 5، 1984 م، ص 64.

[6] – ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، ج 2، ص 157.

القاف فقد استعمل الخضم لأكل الرطب، والقضم لأكل اليابس، ومنه سدّ وصدّ، فالسدّ دون الصد، لأنّ السين أضعف من الصاد، ولذلك استعملت للباب ونحوه، بينما الصاد لقوّتها استعملت لما هو أقوى؛ وهو جانب الجبل والوادي والشعب[1]... إلى غير ذلك من الأمثلة التي استشهد بها، والتي يكون فيها المبنى حذو المعنى.

وقد عثرنا في القرآن الكريم على الكثير من هذه الظاهرة من ذلك لفظة:

"أف":

يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف/17].

يقول الفرّاء (ت 207 ه): «أف... صوت لا يعرف معناه إلاّ بالنطق به... كما قالت العرب: سمعت طاق طاق، لصوت الضرب. ويقولون: سمعت تغ تغ لصوت الضحك»[2].

وجاء في اللسان أن أف في اللغة تطلق على «الوسخ الذي حول الظفر... وقيل الأف وسخ الأذن»[3]، و«يقال لكل ما يضجر ويستثقل: أف له»[4].

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 157.

[2] - الفراء، أبو زكرياء يحي بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، د ط، د ت، ، ج 2، ص 121.

[3] - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 1، ص 121-152، مادة (أف).

[4] - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن المبين للسنة وآي الفرقان، ج 13، ص 58.

وفي تفسير الآية يقول ابن عاشور: «أف اسم فعل بمعنى: أتضجر... وهو هنا مستعمل كناية عن أقلّ الأذى، فيكون الذين يؤذون والديهم بأكثر من هذا أوغل في العقوق الشنيع وأحرى بالحكم بدلالة فحوى الخطاب»[1]، فعلى الرغم من وجازة لفظة (أف) فهي تختزل الكمّ الهائل من المشاعر التي كلّها تحيل على الغيظ والضجر والغضب، المختزن في الصدر. فالكلمة عبارة عن صوت أو نفس يطلقه الإنسان تعبيرا عما بداخله من الضيق والاستثقال لموقف أو شخص؛ وهما في الآية الوالدان-رضي الله عنهما-، فقد نهت الآية عن إيذائهما ولو بقول (أف). وسنحاول أن نكشف الصلة بين الصوتين المشكلين للفظة (أف) وهما الهمزة والفاء، والمعاني التي ذكرناها.

حينما نعود إلى خصائص صوتي حرفيها (الهمزة والفاء) وما ينبعث منهما من جرس نلاحظ أنّ كلمة (أف) جاءت بالفعل محاكاة للصوت الذي يزفر به المتأفف، فهي «حكاية الاستكراه والتضجّر وصوتا الحكاية الهمزة والفاء»[2].

فالهمزة: صوت حلقي انفجاري شديد، لا هو بالمجهور، ولا هو بالمهموس، وذلك لأن فتحة المزمار مع الهمزة تكون مغلقة إغلاقا تاما، فلا يسمح بمرور الهواء إلا حين تنفرج فتحة المزمار[3]، وعدّ رمضان عبد التواب الهمزة صوتا شديدا مهموسا مرقّقا، وذلك لانغلاق الأوتار الصوتية غلقا تاما، يمنع الاهتزاز الملازم لصفة الجهر[4]. وذكر الخليل (ت 175هـ) أن الهمزة مهتوتة[5]؛ أي ضعيفة. وسواء أكانت مهموسة أم مجهورة فإنّ المهمّ فيه هو حبس الهواء وانفجاره فجأة، تعبيرا عمّا يضيق به الصدر من الضجر والاستثقال، وهذا الهواء المندفع مع الهمزة يجد مدى أرحب للخروج مع حرف الفاء،

---

[1] – ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1984م، ج 26، ص 38.

[2] – الفاخري، صالح سليم عبد القادر: الدلالة الصوتية في اللغة، ص 78.

[3] – ينظر: إبراهيم، أنيس: الأصوات اللغوية، ص77.

[4] – ينظر: رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 56.

[5] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، ج 1، ص 37.

وهو صوت رخو مهموس، وعلى الرغم من أنّه صوت رقيق يضفي على الألفاظ التي يدخلها معنى الضعف والوهن[1]، إلاّ أنّه يكتسب في بعض الحالات بعضا من الشدّة وخاصة إذا كان في نهاية الكلمة حيث يحيل معناه على الانفراج والتباعد[2]، المطابق تماما للكمّ الهائل من الغضب المفرج عنه عند النطق به. وعليه، نلاحظ كيف يتشاكل الصدى الصوتي المنبعث من هذه الكلمة مع ما ترمز إليه من الاستقذار والاستثقال.

ولأنّ التأفّف في ذاته هو غاية العقوق فما بالك إذا كان ملابسا للكفر، وكما قال البقاعي (ت 885هـ) عن الحرالي: «إنّ التأفّف أنهى الأذى وأشدّه، فإنّ معناه أنّ المؤفّف به لا خطر له، ولا وزن أصلا، ولا يصلح لشيء بل هو عدم بل العدم خير منه مع أنهى القذر»[3]، ولذلك استحق صاحبه الهلاك والخسار. ومن ثمة فقد تبين لنا أنه ليس هناك أشكل ولا أنسب من كلمة أف للنهي عنها، إذ أنه على الرغم من أنها صوتان فقط إلا أنها حوت جماع الوسخ والاستقذار (المعنى اللغوي) الذي ينبغي أن يتره عنهما الوالدان سواء أكانا مسلمين أم كافرين.

"داحضة":

وتقدّم لنا كلمة "داحضة" في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ [الشورى / 16]، حكاية أخرى من الإعجاز الصوتي للقرآن، والذي يبيّن عناية القرآن بالصوت من حيث خصائصه وصفاته وموقعه في الكلمة وفي الجملة، ومن ثمّة التنبيه إلى خطورته في إبراز المعنى وتحقيق المطلوب.

---

[1] – ينظر: حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 132.

[2] – المرجع نفسه، ص 133.

[3] – البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1415ه–1995م)، ج 7، ص 130.

فداحضة من (دحض): «الدّال والحاء والضاد أصل يدلّ على زوال وزلق، يقال: دحضت رجله زلقت، ومنه دحضت الشمس: زالت، ودحضت حجّة فلان إذا لم تثبت...»[1].

وجاء في اللسان: «دحض: زلق، والدّحض الماء الذي يكون فيه الزلق... والدّحض جمع داحض؛ وهم الذين لا ثبات لهم ولا عزيمة في الأمور...»[2].

ودحضت حجّة فلان، أي بطلت، وهي المجاز، ووصف الحجّة بالدحوض لأنّها غير ثابتة فهي كالباطل إلى زوال، يقول ابن عاشور: «الداحضة التي دحضت بفتح الحاء، يقال: دحضت رجله تدحض بفتح الحاء دحوضا، أي زلّت واستعير الدحض للبطلان بجامع عدم الثبوت كما لا تثبت القدم في المكان الدحض»[3]، وعدم الثبات هو ما يؤدّيه بالفعل التشكيل الصوتي لكلمة داحضة، فالدّال شديد مجهور يحمل معنى التحرّك السريع[4]، وتوحي قلقلته بالترنّح وفقدان التوازن. كذلك الحاء بما فيه من حفيف وصحل[5]، فإن النطق به مكسورا هو تمثيل لحدث الزلق.

ثمّ حرف الضاد بجهره وانفجاره وشدّته[6] «يدلّ على أصوات ضجيجية. يعطي إيحاء بالضخامة والشدّة والامتلاء[7]، وهو يذكرنا بصوت الخوض في الماء. ممّا يعني تطابق الصورة الصوتية لهذه الكلمة مع معناها، وهذه الضخامة والامتلاء المنبعث من الضاد

---

[1] – ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، ج 1، ص 434، مادة (دحض).

[2] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 5، ص 224، مادة (دحض).

[3] – ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، ج 25، ص 66.

[4] – ينظر: عباس، حسن: خصائص حرف العربية ومعانيها، ص 68.

[5] – ينظر: المرجع نفسه، ص 181.

[6] – ينظر: البهنساوي، حسام: الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث،، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط 1، 2005 م ص 87.

[7] – ينظر: عباس، حسن: خصائص حرف العربية ومعانيها، ص 157.

والذّي غطّى على الحرفين (الدّال والحاء) ما هو إلاّ تأكيد على بطـــلان وزوال هـــذه الحجة.

"أرداكـــــــم":

ومن حذو مسموع الأصوات على محسوس الأحداث أيضا، كما يقول ابن جني (ت 362هـــ)، نجـــد كلمـــة "أرداكـــم" في قولـــه تعـــالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصّلت/23]، أي أنّ ظنّهم بأنّ الله لا يعلم كثيرا ممّا يعملون أهلكهم، والشاهد في الآية الكريمة كلمة "أرداكم". أورد ابـــن فارس (ت 395هـــ) أنّ: «الرّاء والدّال والياء أصل واحد يدل على الرمي أو ترام ومـــا أشبه ذلك»[1].

وأرداكم «من الرديّ والتردّي، وهو التهوّر في المهواة»[2]؛ أي السقوط والإلقاء. يقول أبو موسى: «ونحن نقول أرداكم بمعنى أهلككم، وهذا تفسير فيـــه تســـامح لأنّ الردى وإن كان الهلاك ففيه معنى زائد عن هلك، لأنّ الردى فيه معنى السقوط، يقولون تردى في البئر، وتردى من الجبل، وفي حديث ابن مسعود "من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي ردى فهو يترع بذنبه"، قال صاحب اللسان: أراد أنّه وقـــع في الإثم وهلك كالبعير الذي تردّى فيالبئر، والمتردية التي تقع من الجبل»[3]. وذلك مـــا تؤدّيـــه أصوات هذه اللفظة، فالبداءة بحرف الهمزة –وقد مرّت بنا خصائصـــه–يأخـــذ في أول اللفظة: «...صورة البروز كمن يقف فوق مكان مرتفع»[4]، ثمّ الرّاء وهـــو: «صـــوت

---

[1] – ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، ج 1، ص 520، مادة (ردي)

[2] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 6، ص 140، مادة (ردي).

[3] – أبو موسى، محمد، محمد: آل حم–غافر–فصّلت، دراسة في أسرار البيان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2009، ص 388.

[4] – حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص95.

تكراري مجهور[1]، مفخّمة لأنّها جاءت ساكنة بعد فتح»[2] ما يعني تكرار حركة الهوي. وخاصية التكرار في الراء تتشاكل وتكرار حركة الهوي والتهوّر؛ أي التكور الذي يوحي به السكون. ثمّ صوت الدّال وهو «صوت انفجاري مجهور مرقّق»[3]، من معانيه الدحرجة والتحرك السريع[4]، وهذه الخاصية تتشاكل والتقلّب المتكرّر والممتد الموافق للمد. وصوت الكاف بما فيه من احتكاك .وأخيرا الميم وهو صوت أنفي مجهور من معانيه الضمّ والجمع[5]. والذي يجسّد صورة التكور وقد اختزل كمّ الغضب الذي ساعدت على إظهاره الغنة كما يدلّ على التوكيد والتشديد والقطع إذا كان في آخر الكلمة[6].

والنطق بالكاف والميم في نهاية الكلمة يحاكي صوت ارتطام الشيء وشدّة اصطدامه. فنلاحظ كيف أنّ أصوات الكلمة –أرداكم–جاءت موافقة لمعناها، مجسّدة له، ما جعل مشهد التقلّب أو الهوي وكأنّه ماثل أمامنا، نتابع حركته أوّل بأوّل، وكما قال صلاح فضل إنّ بعض الأصوات تمتاز بطاقة إيحائية تتداعى لا شعوريا في معظم الأحيان، وفي هذا الصدد فإنّ تراسل الحواس يلعب دورا كبيرا في الإيحاء بالانطباع الذي وصل من خلال السمع إلى البصر واللمس وجعله مدركا ملموسا[7]. وملاحظة أخرى تتمثّل في دقّة ترتيب أصوات هذه الكلمة بما يتشاكل مع حدث السقوط من بدايته إلى نهايته، وقد التفت إلى ذلك ابن جني (ت 392هـ) في قوله: «وذلك أنهم قد يضيفون إلى

---

[1] – رمضان، عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 48.

[2] – البهنساوي، حسام: الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، ص 71.

[3] – المرجع نفسه، ص 76.

[4] – عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 68.

[5] – ينظر: المرجع نفسه، ص 72.

[6] – العقاد، عباس محمود: أشتات مجتمعات، ص 46.

[7] – ينظر: فضل، صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص 314.

اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداثالمعبر عنها بترتيبها وتقديم ما يضاهي أوّل الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب»[1].

ومن الألفاظ التي تنهض فيها الأصوات إلى جانب معناها بدور في تقديم الدلالة لفظة "**كاظمين**"، في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر/18].

جاء في مقاييس اللغة: «الكاف والظاء والميم أصل صحيح يدلّ على معنى واحد وهو الإمساك والجمع للشيء من ذلك الكظم: اجتراع الغيظ، والإمساك عن إبدائه، وكأنّه يجمعه الكاظم في جوفه»[2].

وفي اللّسان: « الأصل في الكظم الإمساك على غيظ وغم »[3]، هذا المعنى – الإمساك–يعزّز مناخ الثقل والإطباق الذي تشيعه في النفس لفظة (كاظمين)، وهو ما توحي به فعلا أصواتها منفردة ومجتمعة، بحيث أنّ الكاف انفجاري رخو، من معانيه إذا كان في أول الكلمة: «الضخامة والامتلاء والتجميع، ويدلّ على التمكّن في الشيء»[4]، فلأنّه يصدر من أقصى الحنك واللهاة[5]، فإن هذا يجعله مانعا لخروج النفس، وكان ترتيبه في أول الكلمة مطابقا لحدث الحبس والمنع الذي يسبّبه صعود القلوب إلى الحلوق.

---

[1] – ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، ج 2، ص 162.

[2] – ابن فارس، أبو الحسن أحمد: مقاييس اللغة، ج 2، ص 447، مادة (كظم).

[3] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 13، ص 75، 75، مادة (كظم).

[4] – حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 70 و151.

[5] – عبد التواب، رمضان: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 221.

والظاء بما فيه من إطباق واستعلاء وتفخيم كل ذلك يجعله مشاكلا لمعنى الامتلاء فمن معانيه: «الامتلاء بما يتوافق مع ظاهرة التفخيم»[1].

ويوحي انطباق الشفتين في الميم بمعاني الضم والجمع والسد والانغلاق[2]، ثمّ الياء بما فيه من إصمات ومنع ومدّ، ما يضاعف الإحساس بالثقل وامتداده، والوقوف على صوت النون في الأخير يتوافق وإحكام الإغلاق والكظم الذي يتمدّد مع الفتحة أكثر فأكثر فالنون «أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن مشاعر الألم والخشوع»[3]، كلّ هذه الأصوات جاءت مطابقة للمعنى الطبيعي لكلمة كاظمين، مشاكلة بذلك حالة الكفار عند مشاهدة أهوال يوم الآزفة.

فصعود القلوب إلى الحلوق حقيقة أو مجازا -كما سنرى-لاشكّ أنّه يؤدّي إلى الضيق الذي يتولد عن الامتلاء، ومن ثمّة انحباس الهواء، ولذلك كان «الكظيم هو المكروب الذي أخذ الغمّ بكظمه»[4]. وقد اختار القرآن لتجسيد هذه الحالة كلمة "كاظمين" بدلا من (مكروبين) أو (محزونين) مثلا لدلالة أصواتها على معناها، وكذلك لم يقل كاتمين على الرّغم من أنّ «الكتمان من الكتم شبيه بالكظم والقطم في الحركة الحسية التي نتصوّرها عند الإكراه على كتمان النفس، ولكن الكتمان يوحي إلى الذهن بالمعنى اللطيف حين نريد به الخفاء والسكوت»[5]، بينما يوحي الكظم بالإكراه والضغط، والضغط، فآثر اللفظ القوي للمعنى القوي مشاكلة، ذلك أنّ «للصوت في اللغة العربية

---

[1] – حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 124.

[2] – المرجع نفسه، ص 72.

[3] – المرجع نفسه، ص 160.

[4] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 13، ص 75، مادة (كظم).

[5] – العقاد، محمود عباس: أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف، ط 6، د ت، ت، ص 47.

قيمة دلالية مستمدة من طبيعة الصوت نفسه، فالأحداث الشديدة تناسبها أصوات شدّيدة، وعلى العكس منها الأحداث السهلة، حيث تناسبها أصوات غير شديدة»[1].

"نزغ":

يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [فصّلت/ 36]، (نزغ): كنغز ونخس ونغس ونخز[2]، وهي كلّها مستعملة في غرز شيء في جسم، و«النزغ: شبه الوخز والطعن، ونزغه بكلمة نزغا: نخسه وطعن فيه مثل نسغه»[3].

يقول الزمخشري (ت 538هـ): «نزغ، مثل نسغه إذا طعنه ونخسه، ومن المجاز نزغه الشيطان، كأنّه ينخسه ليحثّه على المعاصي، ونزغ بين الناس أفسد بينهم بالحثّ على الشرّ»[4]، فالنزغ مستعار لما يحدثه الشيطان داخل الإنسان من وسوسة تحمله على المعصية والإفساد.

ويقول ابن عاشور : «والنزغ: النخس، وحقيقته: مس شديد للجلد بطرف عود أو إصبع، فهو مصدر، وهو هنا مستعار لاتصال القوة الشيطانية بخواطر الإنسان تأمره بالشر وتصرفه عن الخير»[5]، فالنزغ إذن حركة خفيّة من جسم خفيّ تحدث داخل الإنسان تحرّك فيه دواعي الشرّ، وتحمله على اقترافه، فإذا وجد الإنسان ذلك من نفسه، فليلذ بالله السميع العليم، الذي يسمع كلّ شيء ويعلم أدنى شيء، وليستعذ به من كيد

---

[1] – الفاخري، صالح سليم عبد القادر: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، ص 152.

[2] – ينظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، ج 2، ص ص 546، 549، 555، مادة (نزغ).

[3] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ج 14، ص 235، مادة (نزغ).

[4] – الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة، بيروت، د ط، (1424 ه–2004م)، ص 628، مادة (نزع).

[5] – ابن عاشور محمد الطاهر: تحرير التنوير، ج 24، ص 297.

الشيطان، ولنتأمل كيف تسهم أصوات الكلمة في تصوير هذا المعنى وتجسيده، فالنون حرف أنفي مجهور[1]، ومن معانيه إذا كان في أول الكلمة «الاهتزاز والاضطراب، وتكرار الحركة بما يحاكي الاهتزاز في صوت النون»[2]، وكذلك حرف الزّاي« لثوي احتكاكي مجهور»[3]، فهو «يقوم أصلا على الاهتزاز الصوتي»[4].

أمّا حرف الغين فهو احتكاكي مجهور[5]، لغؤور يوحي بالخفاء والغموض، ومن معانيه أيضا الاهتزاز [6]، فهذه الحروف تُفعِّل معنى الاهتزاز والخفاء، وهو ما يقوم عليه الترغ أو النخس، وبذلك يتشاكل مبنى كلمة (نزغ) ومعناها لتقديم صورة الوسوسة الشيطانية الخفية والخبيثة، والتي تحدث داخل الإنسان للإيقاع به، فالآية تحذّر الإنسان وتنبّهه حتى لا يكون كالدابة لا تسير إلاّ إذا نغزها أو نخسها راكبها.

نستخلص ممّا سبق دقة اختيار القرآن الكريم للألفاظ التي تتشاكل أصواتها والمعاني المعبّر عنها، فقد حمّل أصوات الكلمات القيم التعبيرية والدلالات الإيحائية المناسبة للمعنى الذي مثّلته خير تمثيل، فكانت الأصوات بصفاتها وخصائصها، وبما تضفيه من أصداء مصاحبة لمعنى الكلمة، أدلّة على المعاني؛ فكان حدث الكظم بما فيه من ضيق وصعوبة، وحدث التأفف بهديره وأزيزه، والتردي بتقلبه وهوره، والترغ بوسوسته وتخفِّيه، والدحض بما فيه من اللاتوازن واللاثبات، كل ذلك كان أصواتا وأصداء جسدت المعاني التي صارت كأنما هي مشاهد تؤدى على ركح، نراها ونسمعها ونتابع حركتها.

وفي سياق الرمزية الصوتية أيضا استخدم القرآن الكريم لأداء المعنى وتصويره ألفاظا تعبر بأصواتها عن معناها أي أن «اللفظ يدل على نفس الصوت، والصوت يتجلى

---

[1] – رمضان، عبد التواب: مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 49.

[2] – عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 161.

[3] – بشر كمال محمد: علم الأصوات، ص 301.

[4] – عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 139.

[5] – ينظر: بشر كمال محمد: علم الأصوات، ص 303.

[6] – ينظر: عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 126.

فيه ذات اللفظ، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة، وتؤخذ الكلمة منه»[1]، وهو ما يعرف بـ Onomatopoeia[2]، وهي الألفاظ التي تعدّ بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة[3]. وقد عالج ابن جني (ت 392 ه)هذه الظاهرة في باب أسماه تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني[4].

ويظهر هذا في الألفاظ التي تتمتّع بتعبيرية داخلية وطبيعية، يوقعها التجانس الصوتي داخل الكلمة الواحدة، والتي يقوم بناؤها على "هندسة صوتية"[5]، خاصة قوامها التواتر المنتظم لأصواتها ما يؤدّي إلى تواشج العلاقة أكثر فأكثر بين هذه الأخيرة، –الأصوات–ومدلول اللفظة. وفي هذا النوع من الألفاظ يبلغ التشاكل والتناسب بين الدلالة الصوتية والدلالة المعنوية للفظة ذروته في تحقيق المعنى الذي تحتكره اللفظة دون منازع، من ذلك لفظة "صرصر" و"سلاسل" فكلتاهما محاكاة للطبيعة أو للحدث الطبيعي المعبّر عنه.

يقول تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [فصّلت/16].

ذكر الخليل (ت 175هـ) في مادة صرر : «صرّ الجندب صريرا، وصرصر الأخطب صرصرة، وصرّ الباب يصرّ، وكلّ صوت شبه ذلك فهو صرير إذا امتد، فإذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة ضوعف كقولك: صرصر الأخطب صرصرة، وريح صرصر: ذات صرّ، ويقال: ذات صوت، والصرصر لها من البرد. والصرّ: البرد الذي يضرب كلّ شيء ويحسّه، ومنه قوله

---

[1] – الصغير، محمد علي: الصوت اللغوي، ص 185.

[2] – ينظر: ستيفن أولمان: دور الكلمة، ص 78.

[3] – إبراهيم، أنيس: دلالة الألفاظ، ص ص 68–69.

[4] – ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، ج 2، ص 162.

[5] – ميشال شريم، جوزيف: دليل الدراسات الأسلوبية، ص 89.

تعالى: ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [آل عمران/117]، وصرّ الباب وصرّت الآذان إذا سمعت لها صوتا ودويّا، والصّرة: شدّة الصياح...»[1].

فقد نبّه الخليل إلى ما تختزنه مادة صرصر من معاني الشدّة والتكرار، وذلك حكاية لصوت الجندب، لأنّ فيه تقطيعا وترجيعا.

يقول الزمخشري (ت 538هـ): «الصرصرة العاصفة التي تصرصر أي تصوّت في هبوبها وقيل الباردة التي تحرق بشدّة بردها تكرير لبناء الصر، وهو البرد الذي يصرّ أي يجمع ويقبض»[2].

ويقول ابن كثير (ت 774هـ): «... ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾، قال بعضهم: وهي شديدة الهبوب، وقيل الباردة، وقيل: هي التي لها صوت والحقّ أنها متّصفة بجميع ذلك فإنّها كانت ريحا شديدة قويّة لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدّا»[3].

فالصرصرة إذن شدّة سواء أكانت للبرد الشديد الذي يحرق ، أو الصوت المدوّي، إذا ما صاحبها تكرار وترديد كما في صرصرة البازي[4]، وذلك أيضا ما تحيل عليه البنية الصرفية للفظة صرصر، وهي على وزن فعلل و«المصادر الرباعية تأتي للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة فجعلوا المثال المكرّر للمعنى المكرّر»[5]، محاولة لإسقاط حس الحركة على ما يتوهمونه في جرس الصوت[6]، كما ذهب إلى ذلك الخليل (ت 175هـ) ونلاحظ أنّ البنية الصوتية للفظة صرصرة جاءت متضامنة مع البنية الصرفية

---

[1] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج 2، ص 390.

[2] – الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف، ج 24، ص 967.

[3] – ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 137.

[4] – ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، ج 2، ص 152.

[5] – المصدر نفسه، ج 2، ص 153.

[6] – ينظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج 1، ص 39.

والدلالة المعنوية، مساوقة لمعنى الشدّة التي يجسّدها حرف الصاد، وهو حرف صفيري يضفي عليه استعلاؤه وإطباقه الشدّة والصلابة[1]، ثمّ الرّاء وهو حرف تكراري، وفي تكراره ما يعني مزيدا من القوّة والحركة. لذلك استثمر القرآن الكريم هذه اللفظة في العديد من المواضع لما توحي به من طاقة تعبيرية تصوّر نازلة العذاب الشديد التي حلّت بقوم (عاد)، ذلك أننا نلمس: «فيها اصطكاك الأسنان، وترديد اللسان، فالصاد في وقعها الصارخ، والرّاء المضعفة، والتكرار للمادة في صرصر، قد أضفى صبغة الشدّة وجسّد صورة الرهبة، فلا دفء بمستنزل، ولا الوقاية متيسّرة، وذلك ما يهدّد كيان الإنسان عند التماسه الملجأ فلا يجده، أو النجاة فلا يصل شاطئها، أو الوقاية من البرد القارس فلا يهتبلها»[2].

ومن الألفاظ التي تحاكي أصواتها أصوات الأشياء[3]، فجاءت على هيئة المعنى كذلك كلمة (سلاسل) في قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر /71].

تصوّر الآية مشهدا مروعا من مشاهد العذاب يوم القيامة، وقد غُلّت أيدي المكذبين إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل تجرهم الملائكة على وجوههم في الحميم ثم إلى الجحيم، «والأغلال جمع غل بضم الغين، وهو حلقة من قد أو حديد تحيط بالعنق تناط بها سلسلة من حديد أو سير من قَدٍّ يمسك بها المجرم والأسير»[4]. و«السلاسل جمع سلسلة سلسلة بكسر السين، وهي مجموع حلق غليظة من حديد متصل بعضها ببعض»[5]، وقال وقال الراغب (ت 502هـ) في مفرداته: «تسلسل الشيء اضطرب كأنه تصور منه

---

[1] – ينظر: حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 149.

[2] – الصغير، محمد علي: الصوت اللغوي في القرآن، ص 187.

[3] – بيير جيرو: الأسلوبية، ترجمة: منذر عياشي، ص 53.

[4] – ابن عاشور محمد الطاهر: التحرير والتنوير، ج 24، ص 202.

[5] – المرجع السابق، ج 24، ص 202.

تسلسل مترددا فردد لفظه تنبيها على تردد معناه، وماء سلسل متردد في مقره حتى صفا»[1]، ومنه:«تسلسل البرق، استطال في خفقانه»[2]. فمادة سلسل إذن تفيد معنى الاضطراب والتردد والاستطالة، وهو المعنى الذي تعمقه الصورة الصوتية لهذه اللفظة المؤلفة من حرفين هما السين واللام مكررين. فالسين صوت أسناني لثوي رخو مهموس منفتح من معانيه التحرك والمسير بما يتوافق مع خاصية الانزلاق في صوته[3]، و«اللام صوت لثوي (جانبي) مجهور مرقق يعطي إيحاء التماسك والالتصاق»[4]، فتوافق هذه الصفات مع هيئة المعنى يزيد من تشاكل اللفظة مع المعنى، فتنويع العذاب وتكراره وتتابعه وامتداده مشاكل تماما لتتابع حلقات السلسلة وتكرارها واستطالتها. وكل ذلك جعل صورة العذاب المفزعة محسوسة مرئية، وحتى صوت سحب السلاسل على الأرض نجد له صدى في صفير السين، ومن ثمة كان المعنى مجرد صدى للصوت أو يجب أن يكون ذلك[5].فمثل كلمة صرصر أو سلاسل أو أغلال أو سلسبيل... وغيرها مما توصف بأن معانيها طبيعية إنما هي حكاية صوتية خالصة يتشاكل فيها المبنى و المعنى.

وممّا سبق فقد كشفت لنا المعجزة الصوتية القرآنية عما يمتلكه الصوت القرآني مفردا، موزعا في التركيب كان أو متضامنا مع غيره في الكلمة من القيم التعبيرية والإمكانات الإيحائية والجمالية التي تكثف المعنى وتجسده بما يستحوذ على الوجدان.

---

[1] – الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، د ط، د ت ص 313.

[2] – الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة، ص 306، مادة (سلل).

[3] – ينظر: عباس حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص 111.

[4] – المرجع نفسه، ص 79.

[5] – ينظر : ستيفن أولمان: دور الكلمة، ص ص 79–80.

وكما قال الرافعي: «فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة»[1].

[1] – الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، د ط، (1423هـ –2003م)، ص146.